قصر الباي محمد الكبير بوهران

أ. علي بوتشيشة

أستاذ مساعد "أ"- معهد الآثار

خلفت لنا الفترة العثمانية – التي تعد فترة طويلة ومهمة من تاريخ الجزائر – الكثير من الآثار المعمارية وفي مختلف مدن البلاد، وتركت بصماتها واضحة جلية على المباني المشيدة فيها خصوصا الدينية والمدنية منها، ومازالت مدن الجزائر تحتفظ بالعديد من المعالم على غرار الجزائر وقسنطينة ووهران ومعسكر ومستغانم وغيرها.

فمن ضمن المعالم المدنية المهمة الشاهدة على تلك الفترة التي مر بها تاريخ الجزائر نذكر قصر الباي بوهران الذي ما يزال الطابع الأصلي للبناء فيه شاهدا على مرحلة من مراحل البناء الحضاري التي مرت بها بلادنا، فهو يعتبر إرثا معماريا وفنيا ورصيدا حضاريا يجب دراسته والمحافظة عليه والاعتناء به، خاصة إذا علمنا أنه في حالة متقدمة من التدهور.

موقع القصر وتاريخه:

يقع القصر ضمن المجمع المعماري المسمى القصر الجديد[1] الذي يضم أيضا البرج الأحمر[2] والأبراج الاسبانية والقطاع العسكري ومنتزه ابن باديس والفندق.

غداة جلاء الأسبان؛ اختار الباي محمد الكبير المنطقة الأهم من القلعة الحصينة المسماة بالقصر الجديد، وهي المنطقة الجنوبية لبناء قصره، حيث يشرف على المدينة القديمة والجديدة في آن واحد[3]، كما يشرف على الجهة الجنوبية والشرقية، وأيضا على الواجهة البحرية، وقد ورد ذكر هذا القصر في الكثير من النصوص التاريخية؛ العربية والأجنبية والتي أجمعت على ذكر مؤسسه وهو الباي محمد الكبير فاتح وهران، وفي هذا الصدد يقول الراشدي:"..ثم بنى في السنة السابعة والمائتين والألف قلة البرج الأحمر.."[4]

---

[1]- - القصر الجديد هي التسمية الاسبانية له وما تزال متداولة إلى اليوم، أما المسلمون فكانوا يسمونه أحيانا قصر الأمحال(برج اللقالق) وأحيانا البرج الأحمر، وهما تسميتان عربيتان حسب فاي Fey. أنظر:

Fey,H. H.L Histoire d'Oran avant pendant et après l'occupation espagnole, Edition Dar-el-gharb,N.E. 2002, P.66.

[2]- Pièsse,L. Itinéraire historique et descriptif de l'Algérie, Hachette, Paris, 1862, P.213.

[3]- يقصد بالمدينة القديمة الأحياء التي بنيت قبل 1792م على الضفة الغربية من وادي الرحى والتي أتى زلزال 1790م على معظم مبانيها، أما المدينة الجديدة فهي التي شرع الباي محمد الكبير في بناءها على الضفة الشرقية من وادي الرحى.

[4]- الزياني محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق: المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1990م، ص202.

أصبح القصر مقر حكم وإقامة الباي محمد الكبير وللبايات من بعده طيلة ثمانية وثلاثين سنة، ونظرا لأهمية هذا القصر التاريخية والإستراتيجية اتخذه الاحتلال الفرنسي مقرا للحكام العسكريين وثكنة عسكرية تضم- إضافة إلى العشرات من الجنود- مسؤولي معظم القطاعات العسكرية، وقد أطلق عليه اسم"فندق الفرقة العسكرية"[5].

بعد الاستقلال، صار مجمع القصر الجديد- بما في ذلك قصر الباي تابعا لمؤسسة الجيش إلى غاية 1970م، ثم ترك بدون وصاية معرضا لمختلف أشكال النهب والتخريب. في عام 1990م صنف القصر كمعلم تاريخي وأصبح مقرا للدائرة الأثرية بوهران.

مؤسس القصر:

يعد قصر الباي من بين أهم المنشآت المعمارية الموجودة في وهران والتي يعود تشييدها لأحد أبرز بايات الجزائر وواحد من الشخصيات التي حفل بها تاريخ بلادنا، سجل حضوره القوي في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وارتبط اسمه بتحرير وهران من الاحتلال الإسباني؛ إنه الباي محمد بن عثمان الكبير، الكبير بفتح وهران والكبير أيضا بمنجزاته المعمارية العظيمة.

ولد الباي محمد الكبير بمليانة في أواخر الثلاثينات من القرن الثامن عشر على الأرجح، كان والده عثمان الكردي حاكما لتلك المدينة، ثم صار بايا بتيطري[6]، وعقب مقتل والده تكفل به أبو إسحاق إبراهيم المليانى الذي ولي إدارة بايلك التيطري، وحين انتقاله لولاية بايليك الغرب أخذه معه[7] وهذا بعد أن زوجه ابنته، ونظرا لما كان يتمتع به محمد بن عثمان من خصال وصفات حميدة ومقدرة على الإدارة عينه صهره قائدا على قبائل فليتة[8] عام 1178هـ/1764م-1765م، واستمرت قيادته لها إلى غاية 1181هـ/1768م[9]. وفي ذات السنة رقاه الباي إبراهيم إلى منصب خليفة حيث أسندت له مهمة تسيير وإدارة شؤون الرعية المستقرة في القطاع الشرقي لبايليك الغرب، واتخذ مقره بمليانة. وفي تلك الأثناء شارك خليفة باي الغرب في صد الهجوم الاسباني البحري التي تعرضت له الجزائر على عهد الباشا محمد عثمان بقيادة الكونت أوريلى (O'Reilly) عام 1189هـ/1775م[10].

---

[5]- يذكر المؤلف الفرنسي كروك أن القصر الجديد استقبل في حينه 600 رجل من جنود الاحتلال كما جهز داخله مستشفى من 200 سرير. Cruck, E., Oran et les témoins de son passé, imprimerie Hientz freres, Oran, 1956, P.51,53.

[6]- المزاري آغا بن عودة اسماعيل، طلوع سعد السعود في أخبار وهران واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق: يحيى بوعزيز، دار الغرب الجزائري، بيروت 1990م، الجزء الأول، ص 290.

[7]-- ابن سحنون أحمد بن محمد الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم : المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1973، ص125 و126.

[8]- هي قبائل مشهورة عربية الأصل، موقعها بين غليزان وتاهرت، كان الأتراك يعينون لها قائدا مميزا لقوتها وخطورتها. – أنظر: - بن عتو بلبروات، الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري : 17779-1797م، رسالة ماجستير، جامعة وهران، 2002م، ص65 و66.

[9]- ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص125.

[10]- ابن رقية التلمساني محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن الجيلاني، الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، تحقيق: سليم بابا عمر، مخطوط منشور بمجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد 3، 1967م، ص31.

بعد وفاة الباي إبراهيم عام 1185هـ/1771م، خلفه في منصبه الحاج خليل، وعقب وفاة هذا الأخير الذي لم يستمر في الحكم إلا قليلا، عين الباشا محمد عثمان مكانه محمد بن عثمان وذلك في 20 جمادى الثانية عام 1193هـ / 5جويلية 1779م[11].

ومباشرة بعد تعيينه شرع الباي الجديد في إصلاحاته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فمعسكر التي كانت عاصمة بايليك الغرب قبل تحرير وهران بلغت أوج عظمتها وشهدت أزهى أيامها تحت حكم الباي محمد بن عثمان الذي مكث فيها إلى غاية عام 1206هـ/1792م وبها شيد المساجد والمدارس وأنشأ مختلف المرافق[12]. ويعتبر تحرير وهران والمرسى الكبير أعظم منجزات الباي العسكرية، فهذه المدينة كانت خاضعة للاحتلال الاسباني ما يقارب الثلاثة قرون، وبالرغم من أن الباي مصطفى المسراتي فتحها عام 1120هـ/1708م إلا أنها احتلت من جديد عام 1145هـ/1732م.

ولما تسلم الباي محمد الكبير بايليك الغرب شرع في محاربة الأسبان والتضييق عليهم ومحاصرتهم دون انقطاع، وفي محرم 1205هـ /أكتوبر 1790م وقع زلزال عنيف دمر أغلب المباني في مدينة وهران[13] فاستغل الباي حالة الفوضى والاضطراب التي عمت المدينة في مهاجمة الأسبان الذين رغم التعزيزات التي وصلتهم من اسبانيا اضطروا في الأخير إلى طلب الصلح ووقف القتال مستجيبين لمعظم شروط الجزائر[14].

بعد جلاء الأسبان عن وهران مباشرة، دخل الباي على رأس المجاهدين يوم الاثنين الخامس من رجب عام 1206هـ/29 فبراير 1792م[15] واتخذ وهران عاصمة لبايليكه، وحاول أن يعيد لهذه المدينة مجدها بعد أن كانت عبارة عن قلعة محصنة شبه مغلقة، وبذل جهودا معتبرة لتعميرها وإصلاح ما تخرب منها واستقدم إليها السكان من كل مكان.

توفى الباي محمد بن عثمان الكبير في قيطنة أولاد الخديم ببلاد صبيح بالشلف عام 1213هـ/ 1799م[16] عند عودته من الجزائر بعد أن أدى دنوشه. نقل جثمانه بعدها إلى وهران، حيث دفن بمدرسة خنق النطاح بأمر من ابنه وخليفته على القطاع الشرقي للبايليك عثمان بن محمد الذي ولاه حسن باشا بايا للغرب خلفا لأبيه[17].

---

[11]- الزياني محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق: المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1990م ص.ص 196-199.

[12]- سعيدوني ناصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر؛ العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص284.

[13]- الزياني، المصدر السابق، ص 205 و206.

[14]- المدني، أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، الجزائر، 1976م، ص 526.

[15]- الزياني، المصدر السابق، ص 199.

[16]- نفسه، ص 204.

[17]- نفسه، ص 204-205.

لقد أنشأ وأصلح الباي محمد الكبير الكثير من المباني الدينية والمدنية والعسكرية[18] في معسكر وتلمسان ومستغانم والجزائر وملیانة والبرج. أما في مدينة وهران فقد بنى الجامع الأعظم المعروف بجامع الباشا وبنى بخنق النطاح مدرسة حولها إلى مسجد يعرف إلى اليوم باسمه وبنى بالمدينة القديمة جامعا المسمى حاليا باسمه كما بنى أيضا القصر المعروف باسمه وهو قصر الباي.

وصف القصر:

يمتد القصر من الجنوب إلى الشمال على شكل شبه منحرف يبلغ طول قاعدته الكبرى حوالي 90م والصغرى حوالي 40م وتقدر مساحته بـــ4000م2، وهو يتكون من عدة أقسام (أجنحة) هامة وهي الديوان ودار الإقامة(الحرم) والمبنى المفضل ودار الضيافة(الدويرة) والحمام إضافة إلى الحديقتين اللتان تعدان عنصر ربط واتصال بين الأقسام المذكورة. وعلى غرار قصور ودور العهد العثماني في الجزائر- التي تميز مظهرها بالبساطة والتواضع– جاءت جدران قصر الباي ساذجة وعاطلة عن الزخرفة. نصل إلى أقسام القصر عبر مدخل غير بارز يتوسط تقريبا الضلع الشمالي مشكل من عقد منكسر متجاوز يرتكز على دعامتين مستطيلتين، يتقدم حجرة شبه مربعة مفتوحة من جهة الجنوب على حديقة كبيرة (الصورة 1).

أجنحة القصر وملحقاته:

1-الديوان: يعد أهم أجنحة القصر باعتباره قاعة استقبال ومقرا للحكم، يقع في الناحية الشرقية ويشرف على الحديقة الكبرى، يتقدمه رواق مكون من صفين من الأعمدة الرخامية . ندخل عبر مدخل متوسط الاتساع إلى قاعة الديوان وهي مستطيلة الشكل طولها 14.04م وعرضها 8.24م وارتفاعها 4م، ذات أرضية خشبية مستحدثة، يقوم في منتصفها صف من ستة أعمدة مزدوجة من الرخام تحمل خمسة عقود منكسرة متجاوزة. هذا الصف من الأعمدة يقسم القاعة إلى قسمين متقايسين.

لهذه القاعة نوافذ كبيرة أربعة منها تفتح على الحديقة الكبرى من ناحية الغرب واثنتان تفتحان على الخارج من ناحية الشرق، ويكسو جدرانها بلاطات خزفية أصيلة وذلك إلى ارتفاع 2.58م تمثل تجميعات من أربع مربعات خزفية من عدة أنواع، أما أعلى الجدران فنجد رسومات جدارية مختلفة، كما زخرف السقف الخشبي هو الآخر برسومات متعددة على أرضية جصية رفيعة، وجميع هذه الرسومات استحدثت زمن الاحتلال (المخطط 1- الصورة 1).

2- المبنى المفضل: يحتل هذا المبنى الجهة الجنوبية من القصر، مفصول تماما عن باقي الأجنحة، يتكون من ردهة وحجرة وشرفة، يشكل مساحة تقدر بـــ46م2، نرتقي إليه من حديقة صغيرة عبر درج

[18]- أنظر : - الراشدي، المصدر السابق، ص ص 132-135.

صاعد، واجهته مزدانة بثلاثة عقود نصف دائرية تستند على عموديين رخاميين. يتقدم الحجرة ردهة مستطيلة مساحتها 8.75م عرضا و2.95م عمقا ويصل ارتفاعها إلى 4م. أما الحجرة فمربعة الشكل مساحتها 3.63م في 3.61م وارتفاعها 3.46م، لها نافذة في حائطها الغربي يعلوها عقد منكسر متجاوز، كما لهذه الغرفة أربع خزائن جدارية تتوزع على حوائطها متوجة كلها بعقود إهليليجية. تمتد هذه الحجرة جنوبا مشكلة إيوانا تفتح في حائطه الجنوبي نافذة تأخذ شكل عقد منكسر متجاوز.

زينت الحوائط العليا بزخرفة جصية حديثة، أما السقف فهو خشبي تكسوه زخارف نباتية وهندسية جميلة تعود كلها إلى الحقبة الاستعمارية[19]. يحيط بهذه الحجرة من الخارج من ثلاث جهات شرفة يقدر عمقها بـــ1م ذات درابزين معدنية حديثة تعلوها أقواس منكسر ة متجاوزة.

يحتل هذا المبنى موقعا استراتيجيا هاما من خلال إشرافه على المدينة من كل جهاتها، وتعتبر حجرته أهم الحجرات حيث تأخذ اتجاها شماليا يسمح بتلقيها نسمات البحر الرطبة ويمنع عنها هبوب الرياح الساخنة الآتية من الجنوب صيفا (المخطط 5- الصورة 5).

3- **مبنى الإقامة (الحرم)**: يقع هذا الجناح في الجهة الغربية من القصر قبالة الديوان تفصل بينهما الحديقة الكبرى، يحتل مساحة تقدر بحوالي 870م2، مكون من طابقين، كان مخصصا لإقامة الباي وأسرته، أطلق عليه الفرنسيون اسم الإقامة الزرقاء[20]، وقد تعرض هذا القسم الهام من القصر إلى تغييرات كثيرة أفقدته صورته الأصلية تقريبا وخاصة الطابق العلوي منه[21]، بحيث أصبح من الصعب إعادة تصور تقريبي لما كان عليه سابقا.

للمبنى مدخل بسيط يتوسط الحائط الشرقي نصل من خلاله إلى ردهة مربعة مفتوحة مباشرة على صحن مستطيل الشكل تبلغ مساحته 13.75م طولا و7.95م عرضا، أرضيته مبلطة بقطع مربعة زرقاء ترجع إلى الفترة الاستعمارية، تتوسطه نافورة من الرخام الأبيض تبدو غير أصلية.

يحيط بالصحن من جميع جهاته أربعة أروقة ذات أعمدة أسطوانية من الحجر الكلسي مزدانة بتيجان محلية بسيطة، تحمل هذه الأعمدة عقودا نصف دائرية غير متجانسة فيما بينها، يبلغ عددها في كل من الرواق الشرقي والغربي خمسة عقود بينما يبلغ عددها في كل من الرواق الجنوبي والشمالي ثلاثة عقود. تتوزع حول هذه الأروقة عدد من الغرف مختلفة المساحة وإن كان معظمها يميل إلى الاستطالة، وهي تفتح على الصحن من خلال نوافذ. إن هذه الأروقة الأربعة الموجودة بالطابق الأرضي والتي تفصل بين الصحن ومرافق المبنى لا تتكرر بنفس الشكل في الطابق العلوي باستثناء الرواق الجنوبي الذي حافظ

---

[19]- يذكر كروك(Cruck) أن زوجة أحد الجنرالات الذين أقاموا بالقصر كانت فنانة ورسامة وذات موهبة عالية، قامت سنة 1929م بإعادة زخرفة السقف.- Cruck, E. Op.Cit, P.50

[20]- يعتقد البعض أن الصحن كان عبارة عن حوض مائي كبير تربى بداخله الأسماك، إلا أن هذه المعلومة غير الموثقة لم نأخذها بعين الاعتبار. وربما سمي هذا المبنى بـ" الإقامة الزرقاء" نظرا للبلاطات الزرقاء التي مازالت تغطي أرضية الصحن والتي ترجع بدون شك إلى فترة الاحتلال.

[21]- أشار بعض الكتاب الفرنسيين إلى ما لحق المبنى من تشويه ومنهم بييس(Pièsse). أنظر:- Pièsse, L. Op.Cit, P.213.

على بعض عناصره المعمارية ومنها الأعمدة الأربعة التي تستند عليها عقود مصمتة فتحت بها نوافذ على شكل نصف قرص. ومهم أن نشير أن عدد غرف الطابق العلوي يصل إلى سبعة عشر غرفة مختلفة المقاسات تتوزع حول تلك الأروقة المشرفة على الصحن من ثلاث جهات، إلا أن معظم هذه الغرف حديث البناء (المخطط 2- الصورة 3).

4- الحمام: عادة ما تتوفر القصور والدور في الجزائر خلال الفترة العثمانية على الحمامات والتي تتكون من غرفة فأكثر على غرار قصر الباي، والذي يقع حمامه في الجهة الشمالية الغربية ملاصقا لمبنى الإقامة، يتكون من أربعة غرف يتقدمها رواق مسقوف، يمتد هذا المبنى من الجنوب إلى الشمال ويشغل مساحة تقدر بحوالي 380م2، تأخذ الغرفة المتصلة مباشرة بمبنى الإقامة شكلا مستطيلا وهي صغيرة الحجم لها باب في حائطها الشرقي تليها إلى الشمال غرفة مستطيلة تعتبر أكبر هذه الغرف، مساحتها تبلغ 9.79م عرضا و2.50م عمقا، أما من حيث الوظيفة فإن الغرفة نرجح أن تكون القاعة الباردة بالنظر إلى حجمها وموقعها وقياسا على تصاميم الحمامات عامة والعثمانية منها خاصة. ومن هذه الغرفة نصل إلى غرفة مربعة مساحتها 2.92م في 2.90م حوائطها ذات سمك معتبر، تعلوها قبة ثمانية الأضلاع ترتكز على عقود منكسرة متجاوزة مصمتة، ومن دون شك فإن هذه الغرفة كانت تمثل الغرفة الدافئة. ومن هذه الغرفة ننتقل إلى غرفة مستطيلة ضيقة أشبه بالدهليز ذات سقف برميلي.أما الغرفة الأخيرة فمربعة الشكل مساحتها 2.88م في 2.88م ذات قبة مثمنة. ويبدو من خلال الدلائل المعمارية الموجودة بالغرفة أنها تمثل القاعة الحارة، ولاسيما ظهور المدخنة على سطحها ووجود القنوات الفخارية والمجازات المستطيلة المبنية بالآجر لسحب الدخان.

أما الرواق الذي يتقدم الحمام فيبلغ طوله 11.80م وعمقه 2.57م وارتفاع سقفه 3.55م، شكل من خمسة أعمدة من الحجارة الكلسية ذات تيجان محلية تحمل خمسة عقود منكسرة متجاوزة، وفي مقابل هذا الرواق بني رواق آخر مماثل له حديث يتقدم دورة للمياه، ويفصل بين الرواقين فناء مربع طول ضلعه 10.48م. ورغم أن هذا الحمام حافظ على طابعه الأصيل ممثلا في تركيبته المعمارية وبعض عناصره المعمارية إلا أنه في المقابل فقد معظم مرافقه الضرورية ولاسيما الفرناق والأحواض الرخامية ومخزن الخشب وخزانات الماء (المخطط 3- الصورة 4).

5- دار الضيافة(الدويرة): يقع هذا المبنى إلى اليسار من المدخل الرئيسي للقصر يتقدمه رواق من ثلاث عقود منكسرة متجاوزة يبلغ طوله 7م وعمقه 2.30م ومنه نصل إلى غرفة مربعة تقدر مساحتها بـــ14م2 ذات قبة ثمانية الأضلاع ، وإلى الشرق من هذه الغرفة نصل إلى غرفة ذات شكل شبه منحرف طولها 5.30م وعرضها 2.37م. ويقع يمين الغرفتين السابقتين غرفة مستطيلة طولها 7.90م وعرضها 2.65م ذات سقف متقاطع يوجد بركنها الجنوبي الشرقي فتحة لمدخنة ما تزال تحمل آثار الاحتراق، ونعتقد بوجود موقد في المكان السابق، وعليه فإن الغرفة يحتمل أن تكون مطبخا.

إذا اتجهنا غربا من ناحية هذه الغرفة نجد غرفة أخرى شبه مربعة مساحتها 2.50م طولا و2.40م عرضا، يليها إلى اليمين غرفتان مستطيلتان شبه منهارتين حيث فقدت تسقيفهما وأجزاء من حوائطهما، تبلغ مساحة الأولى 4.55م طولا و3.43م عرضا وأما الثانية والتي تتصل بحجرة المدخل فمقاساتها 5.16م في 3.38م. وكانت عادة ما تضم القصور والدور الكبيرة –بما في ذلك الموجودة بالضاحية- مسكنا إضافيا يعرف محليا بـــ"الدويرة " يخصص لإقامة كبار الزوار والضيوف[22] أو مسكنا للخدم[23]، وربما اتخذ منه مباتا للجند القائمين على الحراسة – على الأقل بالنسبة لقصر الباي هذا – خاصة إذا علمنا بان بعض الغرف – المشار إليها – تتصل مباشرة بالمدخل الرئيسي.

وكانت الدويرة في قصور مدينة الجزائر ودورها الكبيرة عبارة عن مسكن يتألف غالبا من صحن مركزي محاط بالأروقة تتوزع حولها الغرف إلا أنه أصغر مساحة من المبنى الرئيسي[24] وقد نجد في تونس ما يشابهها[25](المخطط 4- الصورة 6).

6- الحديقتان: كانت الحديقة تعرف محليا بـــ"الجنينة" وتعتبر من أهم العناصر التي يقوم عليها تصميم البيت الريفي خاصة، ففيها يحس المرء بمباهج الحياة الخاصة في مقام هو بمنأى عن كل فضول وإزعاج من خلال ما كانت تحتويه الحدائق من أشجار للتزيين تارة وللمنفعة الغذائية تارة أخرى، وأزهار وورود وعيون ونافورات للمياه وربما أقفاص للطيور.

يضم قصر الباي حديقتين، أما الأولى وهي الحديقة الكبرى فنصل إليها عبر المدخل الرئيسي مباشرة، تتوسط الديوان والمباني الفرنسية ودار الاستراحة من جهة، ومبنى الإقامة من جهة أخرى، تأخذ شكلا شبه منحرف وتتربع على مساحة واسعة تقدر بـــ583م2، يتوسطها حوض مائي من الحجر تقوم في وسطه نافورة للمياه، كما تضم الحديقة حاليا الكثير من الشجيرات والورود.

أما الحديقة الصغرى فتقع جنوب الحديقة الكبرى نصلها عبر مدخل معقود يتخلل الممر (النفق) الرابط ما بين دار الإقامة والديوان، كان يستخدمه الباي على الأرجح للتنقل بين الجناحين[26]. تأخذ الجنينة الصغرى شكلا مضلعا، وتقدر مساحتها بـــ437م2، يشرف عليها المقر المفضل للباي من الناحية الجنوبية والواجهة الجنوبية لمبنى الإقامة من الناحية الشمالية والمباني الفرنسية الملحقة بالديوان من الجهة الشمالية الشرقية، تتوسطها نافورة مياه مشكلة من حوضين رخاميين متراكبين. يحتل محورها الأوسط ستة أعمدة، أربعة منها مصنوعة من الرخام تحمل تيجان كورنثية، شكل منها على ما يبدو –

---

[22]- Golvin,L. Palais et demeures d'Alger à la période ottomane, O.P.U., 1988, P79,127.

[23]- Ravéreau, Casbah d'Alger, Casbah d'Alger et le site créa la ville, Sindbad, Paris,1989, P.58.

[24]- من المساكن التي احتوت على "دويرة" في مدينة الجزائر نذكر دار عزيزة ودار مصطفى باشا وقصر حسن باشا ودار خداوج العمياء.

[25]- Marçais,G. L'Architecture musulmane d'occident, Arts et Métiers graphiques.Paris,1975,P.478.

[26]- استخدم في بعض القصور الإسلامية الأولى نفق يصل بين غرف الخليفة وقسم النساء، ومن ذلك ما شوهد في قصر الخليفة المعتصم في سامرا وفي بغداد بين قصر الحسن والثريا في عصر الخليفة المعتمد.- كمال الدين سامح، العمارة الإسلامية في مصر، ص69.

إضافة إلى أعمدة أخرى مفقودة- رواق مفتوح يربط بين المقر المفضل ومدخل يحتمل وجوده في الواجهة الجنوبية لمبنى الإقامة كان يفتح على الجنينة يستعمله الباي وأفراد أسرته لا أثر له اليوم، وفتح بدلا منه المدخل الرابط بين الحديقتين المذكور سابقا.

7- ملحقات أخرى: يضم القصر إضافة إلى ما سبق الإسطبلات الواقعة شمالا والتي تتكون من عشر حجرات كانت في الأصل إقامات للجنود الأسبان، بنيت عام 1760م بالحجارة المصقولة.

كما يضم الصهاريج الواقعة يمين المدخل مباشرة ، وهي عبارة عن خزانات كبيرة للمياه بنيت بطريقة محكمة خلال الاحتلال الإسباني، استغلها الباي للتزود بالمياه بعد أن أجرى عليها الكثير من الإصلاحات والترميمات.

ويبقى أن نشير إلى المباني الفرنسية، فغداة الاحتلال أحدثت الإدارة الاستعمارية تغييرات وإضافات هامة مست القصر بشكل عام، ومن ذلك الغرف والملاحق التي بنيت والتي حلت ربما محل بنايات أصلية، ولا يجد الباحث أي صعوبة تذكر في تحديد هذه الإضافات الجديدة خاصة من خلال مواد البناء وتصميمها المعماري، وهي عبارة حاليا عن مباني تتوزع على يمين ويسار الديوان ونضيف إليها معظم غرف الطابق العلوي لمبنى الإقامة والقبة الخضراء التي تتوج إحدى الغرف بالركن الشمالي الغربي[27].

العناصر المعمارية:

1- المداخل: إن من بين أبرز العناصر المعمارية التي لحقها الطمس والتغيير المداخل التي لم يبق منها إلا نماذج قليلة جدا حافظت على طابعها الأصيل ومن ذلك المدخل الرئيسي الذي جاء بسيطا رغم ما يكتسيه هذا القصر من أهمية سياسية وإدارية واجتماعية، وبدا بروزه ضئيلا جدا.

لقد كانت مداخل القصور الصيفية والدور الريفية خلال الفترة العثمانية – غالبا- ذات بروز يمتد إلى غاية السطح[28]، والبروز هذا ظاهرة معمارية تعرف بمقدم المبنى كما تعرف أيضا بالمدخل التذكاري البارز والذي شاع في العمارة الإسلامية. أما عن أصل هذه المداخل فهو غير ثابت، وعرفته معظم الحضارات القديمة من بينها الحضارات الشرقية والرومانية والبيزنطية[29].

وإلى جانب المدخل الرئيسي ضم القصر مداخل أخرى ذات أهمية كمدخل الديوان ومدخل حجرة المبنى المفضل وقد توجا بعقد منكسر متجاوز. ويبدو أن جميع هذه المداخل فقدت زخارفها الأصلية واستبدلت بأخرى حديثة.وكانت – عادة – مداخل السقائف والمرافق المعيشية والسلالم في مدينة الجزائر

---

[27]- Berque,A. L'Algérie terre d'art et d'histoire, Imprimerie Victor Heintz, Alger, 1937, P.241.

[28]- Golvin,L. Recherche archéologique à la Qala de banu- Hammad, Maison neuve, Paris, 1965, P P.103.

[29]- Marçais, G. L'architecture…, P.443.

وغيرها مشكلة من باب ذو عقد نصف دائري محاط بإطار من الرخام أو الحجر يحمل زخارف متنوعة، أما مداخل الغرف والقاعات فجاءت عقودها منكسرة متجاوزة في الغالب.

2- النوافذ: لقد فتحت بقصر الباي نوافذ وفتحات عديدة معظمها مستحدث وبعضها أصيل، وأهمها تلك الموجودة بالديوان والمبنى المفضل تراوح حجمها ما بين المتوسط والكبير، روعي في تصميمها مبدأ التناظر كما خضعت لترتيب متناسق الأجزاء، وخلافا لقصور ومساكن مدينة الجزائر غير الريفية خاصة فإن النوافذ فتحت كثيرة وواسعة استنادا على الأصلية منها، ويبدو ذلك راجع إلى ارتفاع مستوى الأرضية التي بني عليها القصر إضافة إلى احتلال هذا الأخير لموقع يجعل ساكنيه في منأى عن أعين المارة. وينبغي أن نسجل هنا أن نوافذ المساكن التي تفتح على الخارج نادرة وضيقة، ليس فقط بمدينة الجزائر إنما في معظم المدن بالمغرب الإسلامي[30]، وتستمد الغرف نورها من الصحن عبر تلك التي تفتح عليه حيث عددها أكثر ومساحتها أوسع. وكانت النوافذ – عادة- مسيجة بشبابيك معدنية من الحديد أو البرونز بما في ذلك التي تفتح على الداخل[31]، كما هو ملاحظ في نوافذ الديوان الداخلية، وقد يكون الهدف من عمل هذه الشبابيك – إضافة إلى دورها التزييني– وقاية البيت من سطو اللصوص وأيضا تجنيب الأطفال أو النساء أو كل شخص يجلس في النافذة لرؤية المناظر الداخلية من السقوط.

3-الأعمدة: ظهر في عمارة القصر عدة أنواع من الأعمدة التي نجدها مستعملة في الجزائر أثناء العهد العثماني، فالنوع الأول رخامي نصفه السفلي مثمن الأضلاع ونصفه الآخر حلزوني مزدان بتيجان كورنثية استعملت خاصة في قاعة الديوان وفي رواق الحديقة الصغرى وقد وصل عددها إلى 20 عمودا 12 منها في قاعة الديوان. استعمل هذا النوع من الأعمدة كثيرا خلال الفترة العثمانية سواء في العمارة الدينية[32] أو العمارة المدنية ولاسيما القصور والدور المنتشرة في مدينة الجزائر[33]. استوردت هذه الأعمدة على الأرجح من إيطاليا التي كانت تعرف آنذاك نهضة حضارية واسعة، نتيجة لقيام علاقات تجارية بينها وبين الجزائر والتي كانت – بدورها – تملك أسطولا بحريا كبيرا.

أما النوع الثاني من الأعمدة فيتكون من أبدان ملساء أسطوانية الشكل منها ما هو مشكل من الرخام نجد أغلبها موزعة على الرواق المزدوج الذي يتقدم قاعة الديوان وهي بدون تيجان، ومنها ما هو مصنوع من الحجر الكلسي ذات تيجان محلية تتميز بالضخامة وقلة الذوق الجمالي استعملت في أروقة مبنى الإقامة وراق الحمام والدويرة. شاع استعمال هذا النوع في الجزائر خلال العهد العثماني والعهود التي سبقت .

---

[30]- عقاب محمد الطيب، قصور مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، رسالة دكتوراه، الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، 1985م، ص124.

[31]- نسجل هنا أن نوافذ جامع الباشا بوهران على سبيل المثال هي الأخرى مسيجة بشبابيك شبيهة بشبابيك الديوان.

[32]- أنظر: - عقاب محمد الطيب ، قصور مدينة الجزائر، ص128، 129.

[33]- أنظر:- نفسه، ص132.

4- العقود: عرفت العمارة الإسلامية المدنية في الجزائر خلال العهد العثماني أنواعا مختلفة من العقود، وكان كل نوع يستخدم في أماكن محددة في الغالب، وأبرز هذه العقود العقد المنكسر المتجاوز الذي نجده في الأروقة وفي أبواب الغرف وفي الفتحات الكبرى التي تفصل بين الأواوين والغرف وفي مداخل القصور الرئيسية[34].استخدم هذا النوع في المدخل الرئيسي وفي مدخل الديوان والمبنى المفضل وفي الأروقة، باستثناء أروقة مبنى الإقامة، وفي الفتحات الكبرى التي تفصل بين الأواوين والغرف وأيضا في نوافذ المبنى المفضل.

ونجد إلى جانب العقد المنكسر المتجاوز؛ العقد النصف الدائري الذي ندر استخدامه بالقصر – على غير العادة – فلم نعثر عليه سوى في واجهة المقر المفضل وهو من النوع العادي الذي تتساوى فتحته مع نصف الدائرة. وقد استخدم هذا العقد في مساكن مدن الجزائر بأماكن – أيضا – معينة مثل مداخل السقائف وأبواب المرافق المعيشية وكذلك في أبواب بداية ونهاية السلالم[35].

ويعتبر العقد الإهليليجي من أهم العقود التي استخدمها المعمار في قصر الباي، فقد ازدانت بها الخزائن الجدارية ونوافذ قاعة الديوان ونافذتي الردهة التي تتقدم حجرة المبنى المفضل، ولئن اختلفت هذه في حجمها فقد تشابهت في شكلها عموما وتميزت بالروعة والجمال.

ونشير هنا أن الإقبال على هذا العقد كان كبيرا في المساكن والقصور بالجزائر خلال العهد العثماني[36] بل وأصبح سمة من سماتها البارزة عكس العمارة الدينية التي لم ينتشر فيها كثيرا، ونجده غالبا في أماكن محددة والمتمثلة خاصة في الخزائن الجدارية وفوق النوافذ المقابلة للخزائن الجدارية وتلك المشرفة على الصحون وأعلى مقاعد السقائف.

5- القباب: استخدم بقصر الباي قباب مضلعة على غرار المنشآت المعمارية في العهد العثماني الدينية منها والمدنية على حد سواء، غير أن استخدامها اقتصر على أماكن محددة والمتمثلة في قاعتي الحمام؛ الدافئة والحارة وفي إحدى غرف الدويرة. وقباب القصر التي نحن بصددها ثمانية الأضلاع حملت على مثلثات ركنية.

وننوه أن استخدام القبة في مساكن وقصور الفترة العثمانية بالجزائر اقتصر عادة على أماكن محددة دون غيرها أبرزها القاعة الحارة للحمام وأواوين الطوابق الأولى وبداية ونهاية السلالم التي تفضي إلى السطح[37].ومهم أن نؤكد أن المعماريين في العصر العثماني اشتهروا بولعهم بالقباب فاستخدموها بشكل

---

[34]- أنظر: - عقاب محمد الطيب ، قصور مدينة الجزائر ، ص136، 137.

[35]- نفسه ، ص139.

[36]- نفسه، ص144.

[37]- عاصم محمد رزق، عاصم محمد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، القاهرة، 2000م، ص227.

واسع في مختلف مبانيهم و"قد أضفى هذا التغالي في استعمال القباب على الطراز العثماني شخصية مميزة وطابعا مرموقا بين طرز العمارة عامة والطرز الإسلامية خاصة"[38].

6- السقوف: استخدم بالقصر لتغطية الفراغات – إضافة إلى القباب – ثلاثة أنواع من السقوف أهمها السقف الخشبي الذي يتميز بالاستواء وقد سقفت به – كما يبدو – معظم الغرف والقاعات والأروقة والممرات. ويتركب هذا النوع من روافد خشبية مكعبة وأحيانا أسطوانية، يوضع فوقها بشكل متعامد ألواح منشورية تفرش بملاط.

أما النوع الثاني من السقوف فهو السقف المقبب المتقاطع، استخدم في موضع واحد فقط وهو إحدى غرف الدويرة التي افترضنا أن تكون مطبخا، وليس من المستبعد أن هذا النوع من التسقيف استعمل في مواضع أخرى إلا أن التجديدات والتغييرات التي مست القصر تحول دون الكشف عنها، ومهما يكن من أمر فإن المعماري الجزائري عادة ما كان يستخدم الأقباء المتقاطعة لتغطية السقائف والمطابخ والسلالم. ومن المعروف أن الأقبية المتقاطعة ظهرت منذ العصور القديمة[39] وقد عرفتها العمارة الرومانية ثم انتقلت إلى العمارة السورية قبل الإسلام ومنها إلى العمارة في المغرب الإسلامي[40] .

كما استخدم نوع ثالث من السقوف وهو الأقبية نصف الأسطوانية جاء استخدامها محدودا أيضا، إذ غطيت به الغرفة المستطيلة الواقعة بين القاعة الدافئة والقاعة الساخنة، وغرفة الحراسة الواقعة إلى اليمين مباشرة من المدخل الرئيسي. ولعل هذا النوع من السقف استخدم في تغطية المساحات الضيقة كالممرات والغرف الضيقة المستطيلة، ولم يكن شائعا في عمارة الجزائر خلال الفترة العثمانية.

الخاتمة:

وفي الأخير نؤكد أن قصر الباي محمد الكبير بوهران حافظ في عموم عناصره على التصميم الذي عرفته قصور مدن الجزائر خلال العهد العثماني ولاسيما الريفي منه، حيث تميز من الناحية المعمارية بتعدد الأجنحة واتساع مساحته التي قدرناها بـــ4000م2 واشتمال مبنى الإقامة على "وسط الدار" أو الصحن المركزي المكشوف المحاط بأروقة تتوزع حولها الغرف، كما ضم القصر حماما على غرار الكثير من قصور ومساكن الفترة العثمانية بالإضافة إلى دار الضيافة أو الدويرة التي عرفتها معظم القصور والدور المؤرخة في ذات الفترة وحديقتين كبيرتين، فالحديقة أو "الجنينة" كما هو معروف تعتبر من أهم العناصر التي يقوم عليها البيت الريفي على الخصوص.

---

[38]- نفسه، ص232.
[39] -عاصم محمد رزق، المرجع السابق، ص235.
[40] - نفسه، ص 235 .

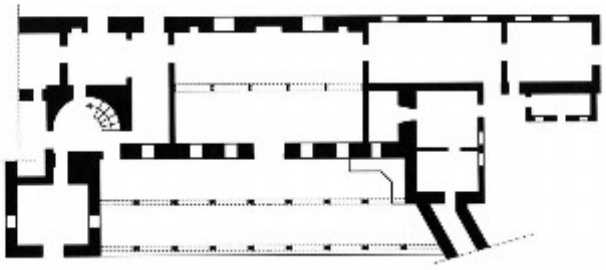

مخطط 1: الديوان

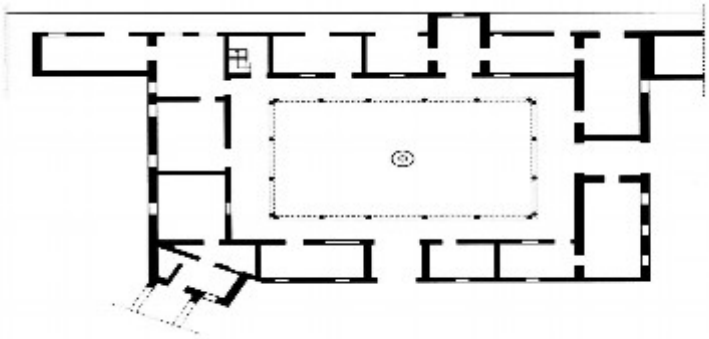

مخطط 2 : دار الإقامة

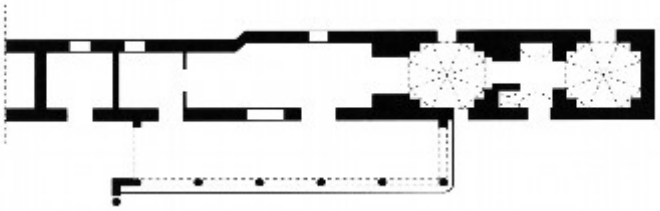

مخطط 3: الحمام

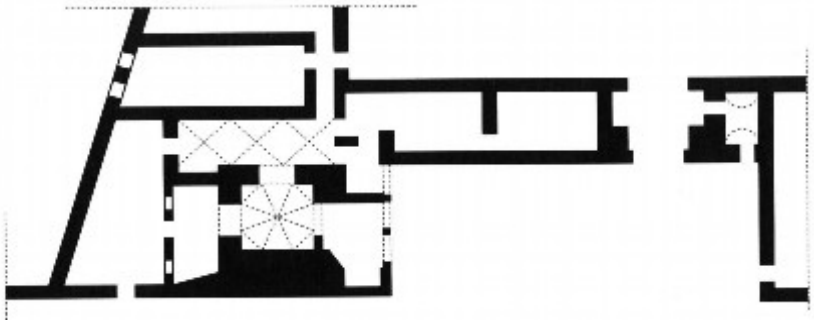

مخطط 4: المدخل ودار الضيافة

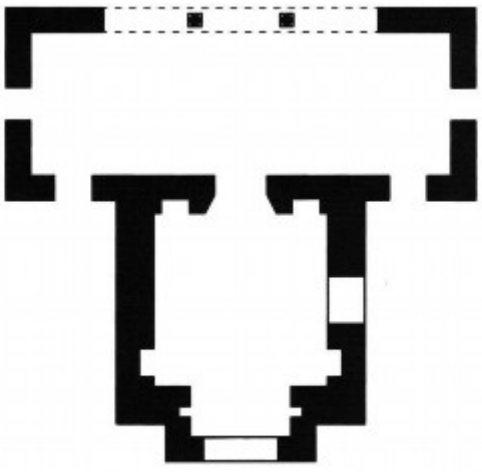

مخطط 5: المبنى المفضل

صورة 1 : منظر عام لقصر الباي

صورة 2 : الديوان

صورة 3 : دار الإقامة

صورة 4 : المبنى المفضل

صورة 5 : دار الضيافة

صورة 6 : الحمام